10
سفينة
الأصدقاء

مع الياك

فى بلاد التبت

تأليف : سامى البجيرمى

رسوم : محمد فايد

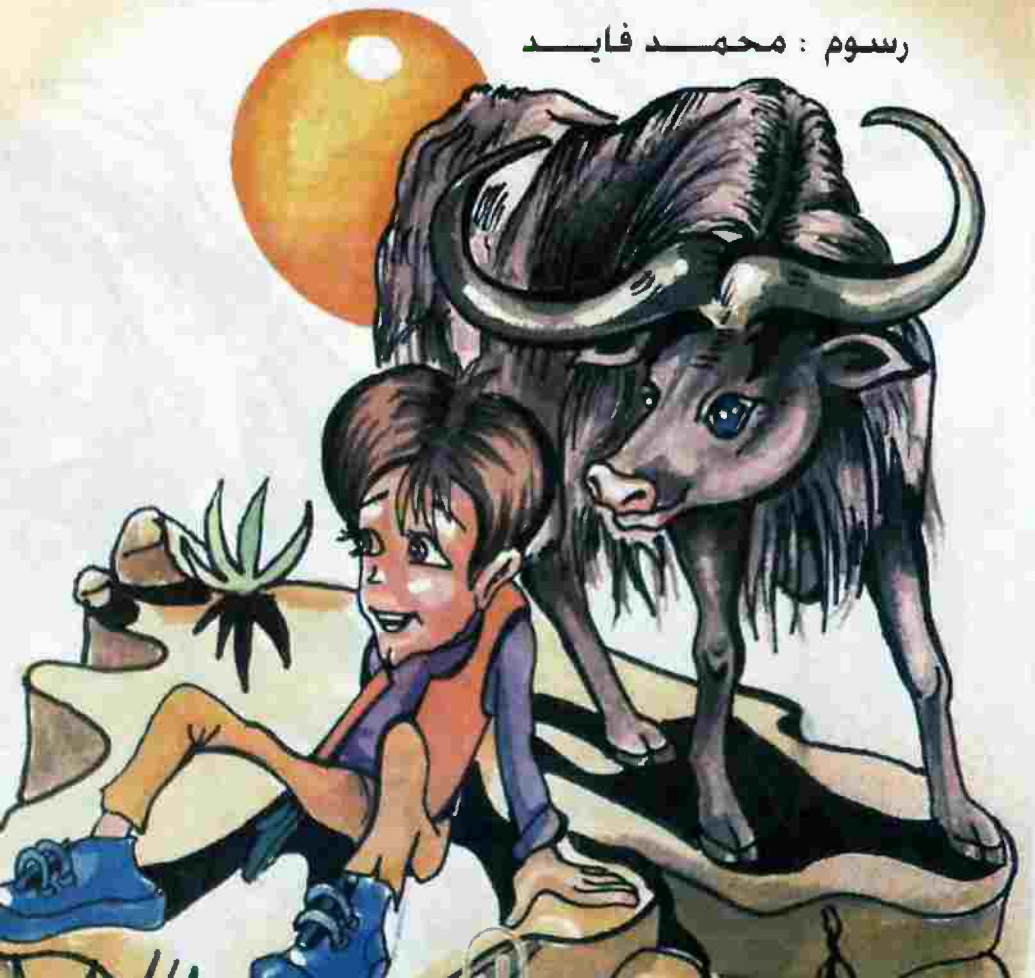

بَعْدَ أنْ قَطَعَ مُحَمَّدٌ مَسَافَاتٍ طَوِيلَةً يَحْمِلُه الْيَاكُ وَسْطَ الجِبَالِ ، سَألَ مُحَمَّدٌ : « أيْنَ نَحْنُ ؟ » .

أجَابَ الْيَاكُ :

« نَحْنُ فى بِلادِ « التِّبت » التى تُوجَدُ فى وَسَطِ قَارَّةِ آسْيَا ، شَمَالِ الهِنْدِ ، وهِى أكْبَرُ هِضَابِ العَالَمِ ويَقَعُ مُعْظَمُهَا دَاخِلَ أرَاضِى دَوْلَةِ الصِّينِ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : « وهَلْ هَذَا سَقْفُ العَالَمِ ؟ » .

أجَابَ الْيَاكُ :

« نَعَمْ ، فَهُو أعْلَى مكانٍ فى العَالَمِ يَعِيشُ فِيهِ الإنْسَانُ » .

قَالَ مُحَمَّدٌ : «إنَّ مَنْظَرَه كمَنْظَرِ الصَّحْرَاءِ».

قَالَ الْيَاكُ :

« هُوَ كَذَلِكَ ، فإنَّ جُزءاً عَظِيماً مِنْ هَذِهِ الأَرَاضِي صَحْرَاء ، ولَكِنْ تُوجَدُ فِي الجَنُوبِ أَمَاكِنُ يُزرَعُ فِيهَا القَمْحُ والشَّعِيرُ ، أَمَّا فِي الشَّمَالِ فالأَرضُ صَخْرِيَّةٌ جَرْدَاءُ لا شَجَرَ فِيهَا ولا أَعْشَاب » .

سَأَلَ مُحَمَّدٌ : « مَاذَا تَأكُلُونَ إِذَنْ ؟ إِنِّي لا أَرى هُنَا شَيْئاً يُؤكَلُ !! » . أَجَابَ الْيَاكُ مُنْدَهِشاً :

« نَأكُلُ !! إِنِّي لا آكُلُ إِلا القَلِيلَ وأَعِيشُ عَلَى مَا أَعْثُرُ عَلَيْهِ فِي الطَّرِيقِ مِنْ حَشَائِشَ أَو عُشْبٍ ، ولَكِنِّي قَوِيٌّ جِدًّا ولِي شَأْنٌ عَظِيمٌ !! » .

ابْتَسَمَ مُحَمَّدٌ ، ولاَحَظَ ذلكَ الْبَاكُ ، فَقَالَ لَهُ :

« لا تَضْحَكْ ! فَالنَّاسُ هُنَا لا يُمكِنُهُم أنْ يَعِيشُوا بِدُونِى ؛ فَأنا أحْمِلُ لَهُم مُعْظَمَ الأحْمَالِ ، وأسْتَطِيعُ السَّيرَ فَوْقَ الحَلِيدِ والصُّخورِ ، وفى كُلِّ مكانٍ مَهْمَا كانَ وَعْراً » .

وشَمَخَ إلْيَاكُ بأنْفِه تِيهاً وعُجْبًا، فَازْدادَ ضِحْكُ مُحَمَّدٍ ، وصَفَّرَ سُخْرِيةً مِنْهُ.

فقالَ الْيَاكُ :

« لا تُخْرِجْ هَذِهِ الأصْواتِ السَّخِيفةَ ؛
فأنا لا أُحِبُّها !!

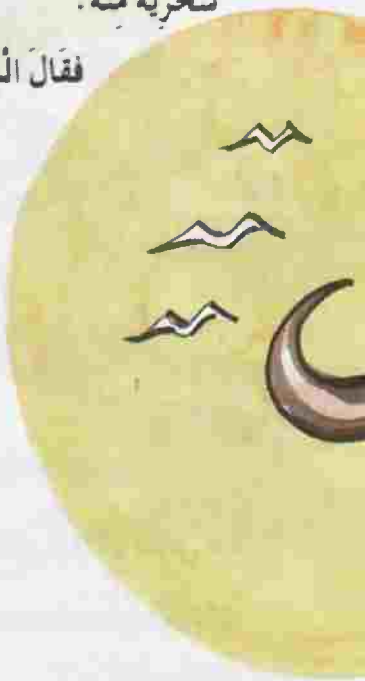

ولأنّى دائماً وَسْطَ الضَّوْضَاءِ والصِّيَاح
عِنْدَما أسِيرُ بالأحْمَالِ فالسَّائِقُونَ
يُصَفِّرونَ ويُغَنُّونَ ورائِى ، ومعَ ذَلِكَ ،
فهَذا أخَفُّ عِنْدِى مِنَ الحِجَارةِ الَّتى
يَقْذِفُونَنى بِها إذا ما تَضَايَقُوا ».

اعْتَذَرَ مُحَمَّدٌ عمَّا صَدَرَ منْهُ ، وقَالَ :

« لَنْ أصيحَ هكَذا مرَّةً أُخْرَى ..

ولَكِنْ ألا تَرى أنَّكَ مَغْرورٌ بِنَفْسِكَ كَثيراً ؟ » . أجَابَهُ الْيَاكُ :

« ولِمَ لاَ ؟ لقَدْ أخْبَرْتُكَ مِنْ قَبْلُ أنَّ الناسَ هُنا لا يَستطيعون الاسْتِغْناءَ عَنِّى فالإناثُ تُعطيهم لَبناً يَصنعُونَ منْهُ الزُّبْدَ والجُبنَ ، وشَعْراً طَويلاً نَاعِمًا يَنْسجُون منْهُ مَلابسَهم ، ويَتَّخذُون منْهُ الحِبالَ والخِيامَ الَّتى يَعيشُ فيها الرُّعاةُ فى الصَّيفِ .

وجِلْدى يَدبغُونَهُ ، ويَتَّخذُونَه أغْطيةً ، ولَحْمِى يَأكلُونَهُ ! فمَا رَأْيُكَ فى هَذا ؟ » .

سَألَ مُحَمَّدٌ : « لا شَكَّ أنَّكَ مُدْهِشٌ !! ولكِنْ ألا يَأكُلُ الناسُ هُنا شَيئاً آخرَ غَيْرَ هَذا ؟ » . رَدَّ الْيَاكُ :

« قَدْ تَعْرِفُ جَوابَ سُؤالِكَ إذَا رَافَقْتَنى إلى ذَلِكَ البَيتِ الَّذى تَرَاه هُناكَ !! فَهُناكَ يَعيشُ سَيِّدى .

وكُلَّمـا أرادَ الذَّهابَ إلى مَكانٍ يَجبُ أنْ أذهبَ مَـعَـهُ ، فـإمَّـا أنْ يَقُودَنى ، وإمَّا أنْ يَركَبَ على ظَهْرى ، ولكِنَّنى عِندَما أشْعُرُ أنَّه فَوْقَ ظَهْرِى أدْفَعُ قَرْنَىَّ إلى الخَلْفِ أحْيَاناً ، وأرْفَعُهُ بِهِمَا ، ثُمَّ أقذِفُ بِهِ عَلَى الأرْضِ » . قالَ مُحَمَّدٌ ـ على الفَوْرِ ـ : « ثُمَّ تَجْرِى طَبْعاً ؟ » .

قَالَ الْيَاكُ : « أجْرِى ! أنَا لا أجْرِى أبَداً !! فأنَا لا أسِيرُ بِسُرْعَةٍ أكْثَرَ من ثَلاثِ كِيلُو مِتْراتٍ فى السَّاعَةِ !! » .

كانَ البَيتُ الَّذى أشارَ إليهِ الْبَاكُ مَبْنِيًّا منَ الحِجَارةِ ـ فالحِجَارةُ مَوجُودةٌ بكَثرةٍ فى بلادِ التِّبت ، بَينَما الخشَبُ قَليلٌ جِدًّا ـ وسَقْفُ البَيتِ مُسَطَّحاً ، والبَابُ صَغيراً ولَكِنَّه يُؤدِّى إلى حُجرةٍ واسعةٍ .

أمَّا النَّوافذُ فَهِى صَغيرةٌ أيْضاً ، ولذَلِكَ كانَتِ الغُرفةُ مُظلِمةً ، علَى أنَّ الضَّوءَ كانَ يَكْفِى ليَتبيَّنَ مُحَمَّدٌ أنَّ البَيتَ مَملوءٌ بالسَّجَاجِيدِ والملاَبسِ والأثَاثِ .

وكانَ للبَيتِ مَطبخٌ كَبيرٌ ، فيهِ الكَثيرُ مِنْ أدَواتِ الطَّبْخِ النُّحاسيَّةِ وأبَاريقِ اللَّبنِ ، وعَدَدٌ كَبيرٌ مِنْ أكْوَابِ الشَّاى .

كانتْ تِلْكَ الأدواتُ والأوانِى نَظِيفةً ، ولَكِنَّ البَيتَ كَانَ قَذِراً ، وكَذَلِكَ كَانَ سَاكِنُوه .

فالنَّاسُ فى تِلْكَ البِلادِ لا يُكْثِرُونَ منَ الاسْتِحْمَامِ أوْ مِنْ غَسْلِ مَلابِسِهِمْ .

ولما دخلَ مُحَمَّدٌ إلى البيتِ ، سألتهُ سيِّدةُ المنزلِ قائلةً :

« أتُحبُّ أنْ أُعِدَّ لكَ شيئاً تأكلُهُ وقليلاً منَ الشاى لتشربَهُ ؟ » .

قالَ مُحَمَّدٌ : «نعمْ ، ولكِ الشُكْرُ !! ».

ثُمَّ أخَذَ يُلاحِظُها ، وهِي تُجَهِّزُ الشَّايَ - والشَّايُ لا يُزْرَعُ فى بِلادِ التِّبتِ - ، وإنَّما يُشْتَرَى من التُّجَّارِ الَّذين يَأتُون إلَيها مِنَ الصِّينِ .

وهؤلاءِ التُّجَّارُ يَجْلِبُونَ مَعَهُمْ ، غَيرَ ذلكَ ، القُطْنَ وأشْياءً أُخْرَى ؛ ليَسْتَبدِلوا بِها الصُّوفَ والجِلُودَ التى يَحْصُلُ علَيها أهلُ التِّبتِ من أغْنَامِهِمْ .

أخذَتِ المَرْأةُ مِلْءَ يَدِها منَ الشَّاى ووضَعتْه فى إناءٍ به ماءٌ وتركَتْه يَغْلى علَى النَّارِ ، حتَّى انْطَبخَ الشَّايُ انْطباخاً جَيِّداً ، ثُمَّ خَلَطَتْه بكَثيرٍ منَ الزُّبدِ والمِلْحِ ،

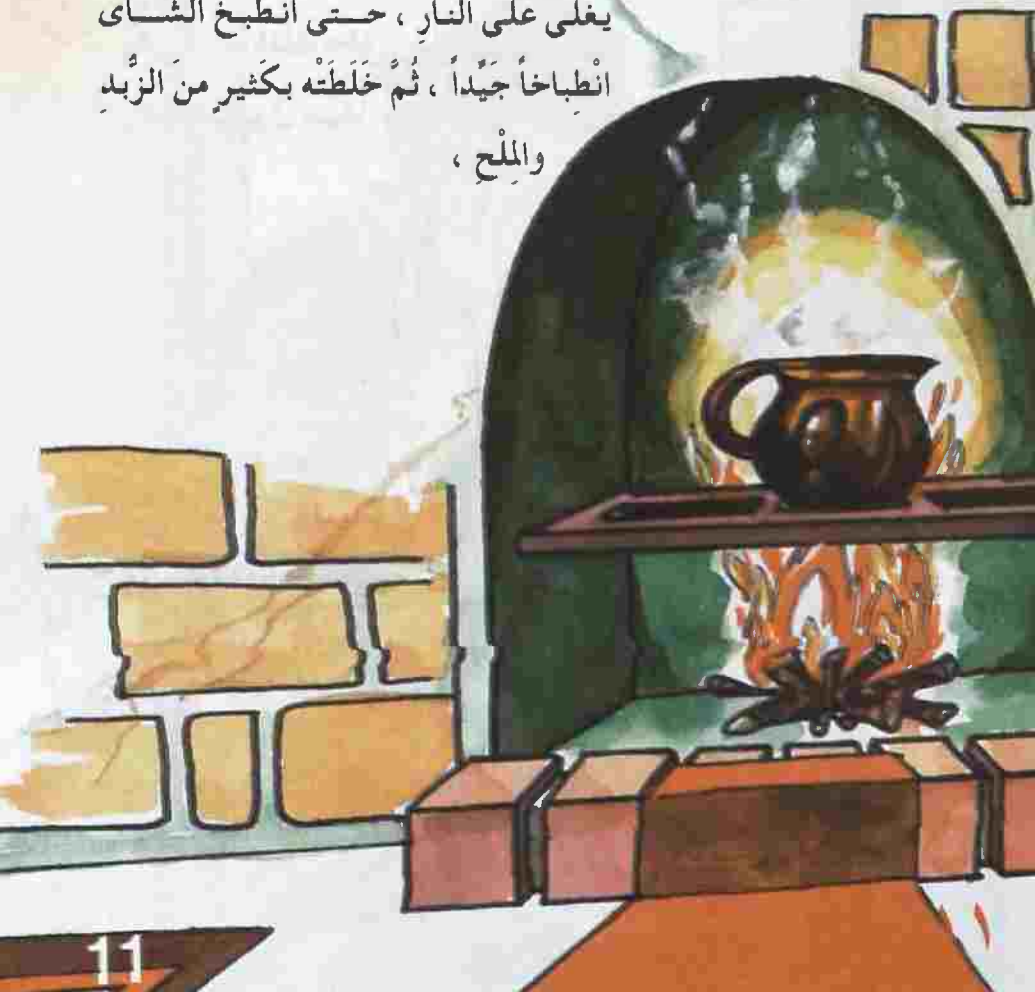

وطلبتْ من مُحَمَّدٍ أنْ يَجلِسَ عَلَى سَجَّادةٍ أمامَ مَائدةٍ مُنْخفِضَةٍ ،
وجَلَستْ هِيَ تِجاهَه وملأتْ لَه (الفِنْجَان) .

إلاَّ أنَّ الشَّاى لَمْ يُعْجِبْ مُحَمَّداً كَثِيراً ، عَلَى أنَّه لَمْ يَجِدْه
كَرِيهَ الطَّعْمِ للدَّرجةِ الَّتى تَصَوَّرها عِندَما رآه يَغْلِى مُدَّةً طَويلةً .

ثُمَّ قَدَّمتِ السَّيِّدةُ بعضَ الأطْعِمةِ
لمحَمَّدٍ ليَأكُلَ .

وفى أثناءِ ذَلكَ دَخلَ رجلٌ البيتَ ،
ولَمَّا رأى أنَّ بالمنزلِ ضَيفاً ،

تَقدُّم وانْحنَى علَى رُكْبَتيهِ ووضَع يدَه اليُمنَى بجانبِ خَدِّه الأيمنِ ،
ويَدَه اليُسْرَى تحتَ كُوعِ ذِرَاعِهِ الأيمنِ ..
وَهذا هُو مُنْتَهَى الاحْتِرَامِ والتَّكْرِيمِ عِندَ هؤلاءِ القَومِ .

ولما تعارف مُحَمَّدٌ والرَّجُلُ ، خَرَجَا مَعًا ، ولَكِنَّ البَرْدَ كانَ شَديداً والرِّياحُ تَلْسَعُه كالنَّحْلِ ، وكانتْ قُطعانُ «الياك» واقفةً وظُهُورها للرِّيحِ ورُؤوسُها مُدَلاَّةٌ إلى أسْفل ، وشَعْرُها الكَثيفُ يَحْميها مِنْ تأثيرِ الرِّياحِ البَاردةِ ..

وحَيواناتُ الياكِ مُخْتلفةُ الألوانِ فبَعْضُها أسْوَدُ وبَعْضُها أبيضُ والبعضُ أسْمَرُ .

أمَّا رِجَالُ تِلْكَ البِلادِ فكَانوا يَرتدُون سُتَراً (مَلابسَ مِنَ الجِلْدِ) وقُبَّعاتٍ جِلْديَّةً مُبَطَّنةً بالصُّوفِ .

ارْتَعشَ مُحَمَّدٌ مِنْ شِدَّةِ البَردِ وأحَسَّ بضَرورةِ العَودةِ إلى سَفينتِه ، لِيَقُومَ بِرِحْلَتِه الأخِيرةِ .. ولَكِنْ هَذِه المرَّةَ وَحْدَهُ ..

يَعُودُ إلَى وَطَنِه !.

الناشر : دار الرشاد
العنوان : ١٤ شارع جواد حسنى ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٣٤٦٠٥
رقم الإيداع : ٩٨ / ٨٢٨٦
الترقيم الدولى : 977 - 5324 - 72 - 6
الطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ١٠ ، ٧ ش السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣
الجمع : أرمس
العنوان : ٣٢ شارع على عبد اللطيف ـ مجلس الأمة
تليفون : ٣٥٦٤٤٠٤

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م